سباق الخيل

في الليل (١)

للأمير مصطفى الشهابي
وزير المعارف السورية

من عجائب باريز (وباريز ام العجائب) إجراء الخيل في الليل مرةً في كل سنة في مضمار « لونشان » الواقع في غابة بولونيا الشهيرة ، بين مسوَّقات اشجار البلوط والكستناء والقطلب والصنوبر والسنط وغيرها ، حيث يتجمع الناس من كل صوب وحدب ، لمشاهدة حلبات تتبارى فيها الجياد الصافنات ، لا في شمس النهار المشرقة ، بل في شموس الكهرباء المتلألئة . في ليلة سجواء صفت سماؤها وراق نسيمها إنطلقت بنا السيارة تمشي الهوينا في خضم من مثيلاتها كأنهن النخل المتتابع او الموج المتدافع ، حاملات الى المضمار هواة الخيل والقراة بالمراهنة عليها ، وهم القلة ، أما الكثرة فحسان باريز واطرافها ممن لا تفوتهن ليلة كهذه يبرزن فيها على الناس فتنةً للعين ودهشة للتأمل

وبعد لأيٍ مّا بلغت بنا السيارة المضمار سائرةً كالسلحفاة من شدة الزحام ، لو سابقها احرج لتركها تتعثر وراءه . واذا بنا في ميدان فسيح أمام سقيفة عظيمة . واذا بالأرض تموج بالناس ، رجالاً في السواد ونساء في اكسية السهرات ، اي في ضروب من الألبسة الحريرية إفتنّ في صنعها أصحاب الازياء في باريز فجعلوها على أشكال وألوان وحلوها بتطاريز وتعاريج وتلافيف وتزاويق ومخاريم ، فكانت آية الأناقة في عالم الازياء ، وصار المرء لا يدري أيمتع طرفه بهذه البدائع من الألبسة أم يمتعه بجمال اللواتي يرفلن بها ؟

ونظرت الى شجر الميدان فاذا بهم قد علقوا عليها مصابيح وهاجة من الكهرباء او من غاز

(١) في الرابع من تموز « يوليو » ، وهي قصة حقيقية

الليمون بأشكال الطير والزهر والثمر والتماثيل وغيرها ، كما جعلوا المصابيح في أحواض الماء على مثل السمك وصغار التماسيح وأنواع النباتات المائية من أشنة وطحالب وأشباهها

واسندت نظري الى مجرى الخيل فاذا به ظاهر للعين على بعده ، لأنهم سفطوا عليه عواكس الانوار المتألقة فبدت تجلياته بساطاً سندسياً أخضر حائلاً مارقت العين على أجمل من تألق خضرته في الليل البهيم . ثم قُرعت الطبول واصطفت الخيول وزمّر الزمّارون ، حتى اذا دق الجرس المؤذن بالسباق ، انطلقت الخيل كالسهام المطلقة أو كالسيول المندفقة او العقبان المنقضة او الشهب الطاوية ، فتبعتها قلوب المراهنين وصُوّبت اليها مُدْرِيَات الطاوين والغاوين . ولقد رأيت بعض الحساوات يقمن ويقعدن ، ويتوسلن الى الله ويبتهلن ، اذا تقدم الفرس الذي راهنّ عليه أو تأخر بضع خطوات . وما اقتربت الخيل من الغاية إلاّ والناس في هرج ومرج وقد توترت اعصابهم وعلا ضجيجهم وصار كل منهم يصيح بفرسه ويتخيه ، لكنها لحظة لم تمرّ حتى ثاب القوم بعدها الى رشدهم وهدأت أعصابهم واسودت فيهم وجوه وابيضت وجوه . وراح المراهنون الى أماكن الحساب لاستجلاء الربح او الخسارة ، ومنهم من راحوا يتفحصون خيل الحلبة الثانية ، أما غير المراهنين فجعلوا يتمشون في الميدان او يختلفون الى مرقص رحب الأرجاء . وقادتني قدماي الى طرف الميدان الذي نحن فيه فاذا بي امام حظار (حاجز) خشبي يفصلهُ عن ميدان آخر بدت على نضارته دلائل الخصاصة ورقة الحال . فسألت عنهم فقيل لي انهم يصيرون الى حيث هم بأجور زهيدة . فقلت لا جرم لأكونن في جلتهم . ثم دمرت عليهم لكنني ما تجاوزت الباب حتى رأيت فتاة في مبعة الصبا ، وسيمة الطلعة ، ممشوقة القد ، تحدق بي وتصعّد فيّ نظرها بازدراء . فجبت لامرها ولم اتبين ما عليّ وعهدي بالباريزيات متحيات برقة العواطف وكثرة المجاملة وفرط الأدب . فاقتربت منها وقلت لها بعد التحية : « هل للآنسة الكريمة ان تعذرني اذا كان قد بدر مني امرٌ يسيء اليها » . فتوردت وجنتاها لهذه المفاجأة وهمّت بالكلام ولم تفعل . فأردفت قائلاً بتلطف : « لا بدّ من امر حملك على ان تحدجني بنظرك ، ومن حق الأدب ان تطلعني على السبب » . فتبسمت للجاجتي ولم تجد مناصاً من الرد فأجابت : « انا يا سيدي لم أحظ بشرف التعرف بك من قبل ، ولم انكر في حركاتك شيئاً مخالفاً للأدب

لكنني انكرت عجبك اني هنا على حين اني شاهدتك في زمرة الطرف الاول من الميدان فحسبت حينئذٍ انك لم تتجاوز الحظار الاَّ لتدل علينا نحن الفقراء بلباسك الاسود الجميل وبقبعتك الاسطوانية العالية فكان مني ما كان عن غير ارادة فاعذرني ولك الفضل » . ولم تكد تتم جملتها إلاَّ وأجبتها قائلاً : « لقد عذرتك وأكبرتك لكنني حريص على ابائك بأني أجنبي لم أدخل ميدان السباق الاَّ لمشاهدة طبقات الناس في هذا المجتمع سواء اكانوا اغنياء ام فقراء ، وان وجودي في زمرة الطبقة الاولى لا يدل على كوني غنيًّا وبعد ليس كل الاغنياء قساة القلوب غلاظ الاكباد »

ورأيتها تبتسم ابتسامة مرة لجملتي هذه وادركت ان في جوفها كلاماً تهم به فبتيتها الخجل فقلت « وفوق هذا إني من بلاد سكانها يتصادقون فور التحادث او التعارف ، وربما كان للفرنسي هذا الطبع السليم . فاذا شئت حسبتني صديقاً لك وبتست إليَّ ما في قرارة نفسك »

فراقتها جملتي هذه وانفرجت اسارير وجهها وسرنا بين الناس وهي تقول : « لقد انكرت عليَّ يا سيدي نظرتي القاسية ، وعجبت لأمر فتاة تُزري ما بين عينيها في مكان كهذا . ولكنك لو علمت سبب تقطبي لعذرتني فالحياة ليست جميلة كما يتصورها بعض الكتّاب الخياليين أو بعض الرجال المبسورين . وشئون الرزق في هذا المجتمع شاكة بجسوم معظم البشر قتّالة للكثيرين . أو تريد دليلاً على ذلك ؟ فأنا الدليل . انني زوجة وأم ولدي يشبّ عن الطوق . وزوجي مهندس بنّاء لكنهُ عاطل عن العمل منذ سنة لندرة الأعمال في هذه الأزمة . وقد اشتغلتُ مدةً أنسخ بالناسخة في أحد المتاجر ، لكن هذا المتجر أوصد أبوابه لقلة البيع فابتغيت الرزق من سبل شتى متذرعة بشهادة البكالوريا التي أحملها فلم أوفّق لاكثر من ان اكون خادمة في مطعم أقدم الطعام الى الآكلين لقاء أجرة زهيدة هي ما يتبرع به هؤلاء علاوة على ثمن الطعام . وأضيف على ذلك اني ورفيقاتي في ذلك المطعم ممنوعات عن الأكل فيه ما لم ندفع ثمن طعامنا كغيرنا من الناس ، فأعجب لمطعم لا يطعم مستخدميه !

هذه حالي يا سيدي وهذه حال عشرات الألوف بل مئات الألوف من العاملين والعاملات في المتاجر والمصانع والمزارع تكدح آناء الليل وأطراف النهار في بلغة من القوت ولا تدركها

الا بشق الأنفس . أما أنتم فاذا تفعلون ؟ ألم يدفع كل رجل منكم مائة فرنك في ذلك (١) أجرة دخول الموقع الأول من الميدان ، ومائة فرنك ثمن العشاء في مطعمه ، ومائة أخرى ثمن المشروبات كالشمبانيا وأضرابها ؟ فاذا أضيف اليها أجرة السيارة وغير ذلك من النفقات جاوز المجموع ما أتكسبه في شهر

ثم انظر الى بذلتي هذه . إنها والحمد لله نظيفة . ولعلها أنيقة ككل ما تلبسهُ الباريزيات فالأناقة من خصائصنا . لكن هذه البذلة البسيطة (وليس لديَّ غيرها تصلح لهذه الأماكن) لا تساوي أكثر من أربعين فرنكاً ، على حين ان بذلة هذه السيدة (وأشارت الى إحداهنَّ) التي تتهادى كالطاووس وتزيغ كديك الروم لا يقل ثمنها عن عشرة آلاف فرنك . وفروة تلك (وأشارت الى سيدة ثانية) تساوي ثلاثين الف فرنك دونما مبالغة . وقس على هذا ألبسة سائر النساء الزيات ودع الجواهر والحلي من ماس ولؤلؤ وفيروز وزبرجد فأثمانها تقدَّر بالملايين وقد هجمت النعمة على كثير من السيدات فأبطرتهنَّ فصرنَ يشترطنَ على الخياطين ان يصنعوا لكل سيدة ثوباً فريداً في زيه لا يحق لغيرهنَّ تقليدهُ ما لم يؤدّين لهنَّ بذلك . أما ثمن كل ثوب من هذه الطراز فعشرات من آلاف الفرنكات

وبعد ما فضل هذه السيدات علينا ؟ إننا يا سيدي ندرس ونحسّ ونشعر ونفكر مثلهنَّ . وربما كنا أكثر منهنَّ صدقاً وشرفاً وأقل إيذاء للناس . لقد قلتَ لي انهُ جاء في قرآنكم أن الله رفع بعض الناس فوق بعض درجات ، فأنا من المؤمنات بهذا القول . لكنني أرى ان الله لم يجعل الدرجة الواحدة من تلك الدرجات طويلة جدًّا أي بطول السلم التي يستعملها عمود الأطفاء في باريز حتى يكون بعض الناس في الأوج وبعضهم في الحضيض ! ثم أين الزكاة التي ذكرت لي أنها وردت أيضاً في القرآن وأين النبي الذي يزكّي ؟

وأرادت المسكينة ان تسترسل في بثّ بنات صدرها لكن جرس الحلبة الثانية لم يمهلها ، فودعتها وقد أخذ مني حديثها كل مأخذ ورحت أفكر في هذا المجتمع الأحمق وفي حظوظ الناس المتفاوتة وأنا أكرر دعاء والدة الاسكندر لهُ : « اللهمَّ ارزقه حظًّا يخدمهُ به أربابُ العقول ، ولا ترزقهُ عقلاً يخدم به أرباب الحظوظ » ! . .

(١) يساوي المليم المصري نحو ثمانين فرنكا او أقلّ قليلاً